

وهذا النوع من الرثاء لا يقف في حدود عند رثاء المدنوحدها حين يصيبها الدمار والتخريب ولكنه يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك تارة والعصورتارة أخرى. بل قد يرثي الدولة بأسرها؛ ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثه، ذلك أن الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، فنهب بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السقفة والأوباش مناحاً صالحاً ليعيثوا فساداً ودماراً. عن هذه النكبة في مرثيته لبغداد فقال: يابؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها أمهلها الله ثم عاقبها حين أحاطت بها كبائرها حلت ببغداد وهي آمنة داهية لم تكن تحاذرها ثم كان خراب البصرة على يد الزنجي ثورتها المشهورة. فأشعلوا فيها الحرائق وحولوها إلى أنقاض ودمار، كم أخ قد رأى أخاه صريعاً ترب الخد بين صرعى كرام كم مفدى في أهله أسلموه حين لم يحمه هنالك حامي كم رضيع هناك قد فطموه بسبا السيف قبل حدّ الفطام وبالإضافة إلى هاتين المرثيتين، حفل ديوان رثاء المدن في المشرق، وكذلك استنارت نكبة بغداد على يد هولاء عاطفة عدد من الشعراء مثل شمس الدين الكوفي، إن لم تقرح أدمعي أجفاني من بعد بُعْدِكُمْ فما أجفاني إنسان عيني مذ تناءت داركم ما راقه نظري إلى إنسان ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلي ولا جيرانها جيرياني وتعد مرثية الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم التنوخي في القرن السابع الهجري أشهر مرثي بغداد حين خربها هولاء. يقول في آخر القصيدة: إن القيامة في بغداد قد وجدت وحدها حين للإقبال إديار آل النبي وأهل العلم قد سبوا فمن ترى بعدهم تحويه أمصار ما كنت أمل أن أبقى وقد ذهبوا الكن أتى دون ما أختار أقدار وكذلك كان رثاء دمشق عندما سقطت في أيدي التتار فتعاقب على رثائها كثير من الشعراء مسجلين ذلك الحدث ومنهم الشاعر علاء الدين العزولي في قوله: أجريت جمر الدمع من أجفاني حزنا على الشقراء والميدان لهفي على وادي دمشق ولطفه وتبدل الغزلان بالثيران لهفي عليك محاسنا لهفي عليك عرائسا لهفي عليك مغاني ويعز ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصاري والمسلمين حين تجمع الصليبيون عازمين على طرد المسلمين وإخراجهم من الأندلس. رثاء المدن في الأندلس. كان هذا الغرض في الأندلس من أهم الأغراض الشعرية، وكان محوره الأول يدور حول سلبيات المجتمع الأندلسي بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة اللهو والترف والمجون وانصراف عن الجهاد. يقوم هذا الرثاء علمقارنة بين الماضي والحاضر؛ والدويلات المسلمة تستعين بالنصاري في تدعيم حكمها. فهي أول بلد إسلامي دخله الفرنجة وكان ذلك مصابا جلازا هز النفوس هزا عميقا. يقول شاعر مجهول يرثي بطليطلة في قصيدة مطلعها: لتكلك كيف تبتسم الثغور سرورا بعدما سببت ثغور وتنتهي بأمنية مشتهة أن يخرج من أصلا بالمسلمين بطل كطارق بن زياد يعيد الأمر إلى نصابه: ألم تك معقلا للدين صعبا فذلله كما شاء القدير وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير مساجدها كنائس، أي قلب علب هذا ولا يطير فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور ثم تختم المرثية بهذه الأمنية: ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح من هذا الخطير؟ فقد أرسل بها علنلسان أميره إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدا به لنصرة الأندلس ومطلعها: أدرك بخيل خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا وهب لها من عزيز النصر ما التمتست فلم يزل منك عز النصر ملتصا ويحكي هذا النص بأس أهلا لأندلس من حكاهم المسلمين ومن ثم توجهوا لطلب النصرة من خارج الأندلس كما تصور حال بلنسية وقد تحولت المساجد إلى كنائس وفرض الكفر سلطانه على الجزيرة وأن الذياصاب بلنسية يوشك أن يصيب باقي المدن الأندلسية: مدائن حلها الإشرار مبتسما جذلان، وارتحل الإيمان مبتنسا بالمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناء هاجرسا ثم يلتفت إلى أبي زكريا سلطان تونس قائلا: طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطئ رأسا كلمن رأسا وأملا هنيئا لك التأيد ساحتها جرذا سلاهب أو خطية دُعسا وأما مرثي الممالك فمن أشهرها مرثية أبي محمد، عبد المجيد بن عبدون التيرثي بها قتلى بني الأفتس أصحاب بطليوس ومطلعها: الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور؟ وفيها يقول: أنهاك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي وتعد أيضا دالية ابن اللبانة في رثاء بني عباد ومملكتهم تلك المرثي التي ربطت بين مأساة المعتمد وضياع ملكه ومأساة الشاعر حين هوى عن عرش الشعر ومملكته: على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد فهيرثي الأندلس في مجموعها مدنا وممالك. وحمص مهبط الجمال، وكيف سقطت أركان الأندلس واحدة تلو الأخرى